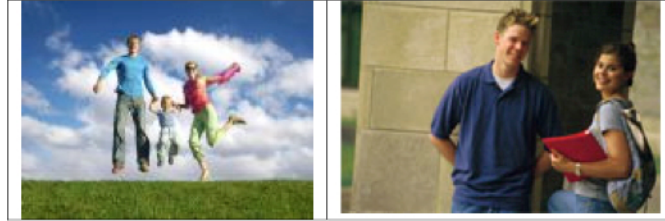


رباط الزواج المقدس في المسيحية

من كتاب ((الزواج في المسيحية)) – جون نور



إعداد الأخ كفام نصرا

الزواج أو البيت هو أهم مؤسسة على الأرض، فهو نواة المجتمع، وعليه تقوم الدولة. ومعنى هذا أنه كما يكون البيت هكذا يكون المجتمع، فالمجتمع الصالح هو برهان البيت الصالح، والمجتمع الفاسد هو برهان البيت الفاسد والمفكك.

الزواج هو بترتيب من الله. هو الذي رسمه وسنّه وقدمه للإنسان لخيرهِ وسعادته.

لهذا نقرأ في الكتاب المقدس أن المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حياً... ونقرأ أيضاً أن الرجل يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته. وهذا الالتصاق يدوم إلى أن يفرقهما الموت.

الزواج هو بين رجل واحد وامرأة واحدة، لا بين رجل واحد وعدة نساء، ولا بين رجل وآخر، أو بين امرأة وأخرى. فهذه البدائل هي شر فطبع لألها خروج على قاعدته. فالله خلق في البدء رجلاً واحداً هو آدم، ومن آدم صنع امرأة واحدة هي حواء. ولهذا تقول كلمة الله إن الرجل يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته، لا بصاحبته، ولا بزوجة جاره أو زميلته في العمل. ومن يخالف هذا الترتيب يخالف ترتيب الله، ويعرض نفسه لدينونة الله وغضبه، لأن العاهرين والزناة سيدينهم الله.

يدعو الله الإنسان إلى الزواج المسيحي بنفس الطريقة التي يدعوها بها لخدمته في القداسة. ولقد شهد هذا القرن اعترافاً كبيراً واضحاً بالكرامة والقداسة المرتبطة بالحياة الزوجية، فهي حقاً دعوة مقدسة لها مكانتها الهامة في الكنيسة. ويجب أن يكون واضحاً للجميع أن الزواج يتطلب اعتباراً واهتماماً وتقديراً من الذين يُقدمون عليه. ففي الزواج المسيحي يدعو المسيح رجلاً وامرأة إلى الاتحاد الوثيق مع بعضهما ومعه أيضاً، وهذه الدلالة المقدسة يشهدان أمام العالم بحبة الله الكامنة بين شخصين، وبحبة الله نحو الكنيسة. وبفضل قوة هذا السر يكافح الزوج والزوجة في حياتهما لتعميق اتحادهما واتحاد القداسة التي دعاهما الله إلى تحقيقها.

كلمة «زوج» في اللغة الإنجليزية معناها رباط البيت. فالزوج هو الذي يربط البيت معاً. يقول أحد الكتاب: هل سمعتم يوماً تفسير كلمة زوج؟ إنها تعني حرفياً رباط البيت ودعامته، أي كمن يقيه

متماسكاً كما تحفظ الربطة المخططة بحزمة الحنطة الحزمة من التفكك. لذلك فهناك رجال متزوجون، ولكنهم ليسوا أزواجاً بمعنى الكلمة، لأنهم ليسوا دعائم البيت. فالزوج يمسك البيت معاً بما يقدمه لزوجته من خدمة جسدية وروحية. وقد يتحطم رباط الأسرة إذا فشل الزوج في القيام بواجبه، كما تتناثر باقة الورد إذا قطع الرباط الذي يمسك أجزاءها معاً.

لقد جعل الله لآدم زوجة كي تكون معينه له. والمعنى الأصلي لكلمة «معين» هو الإحاطة، فالزوجة هي التي تحيط زوجها بالمحبة والمشاركة واللفظ. فإذا كانت دعامة الرجل قوية ارتبط الإثنين معاً في وحدة شركة مباركة، وفي هذه الحالة تستطيع الزوجة أن تحيط زوجها بصدى بركاته لها بكييل جيد ملبّد ومهزوز وفانض، لأن أثرها الكامل كمعينة محيطية به يتوقّف على مدى تأثيره كضابط ورباط لوحدهما معاً. ربما يكون من الملمذ أن نعرف معنى كلمة زوجة في اللغة الإنجليزية: الناسجة أو الحائكة. فالزوج في خدمته الروحية يقدم لزوجته النعم الغنية والبركات التي تحيكها بدورها في نسيج الحياة الزوجية بما يؤدي إلى فرح الأسرة كلها وبركتها، وبذلك لا يأخذ الزوج ما يعطيه فقط، بل يأخذه مزيداً، كيلاً ملبداً ومهزوزاً. فكل حبة من حبات البركة الروحية يعطيها الزوج لزوجته تتزايد، وتعود إليه مضاعفة. حين أخذ الله حواء من جسد آدم أخذها ضلعاً صغيراً ثم أعادها إليه في صورة مضاعفة من الأيدي الخادمة، والعيون المتطلعة إليه بشغف، والأقدام التي تتبعه أينما ذهب، والعقل الذي يشاركه التفكير والتدبير، والأذان التي تصغي إلى كل كلمة يقولها ... جسم كامل حي، ونفس تحبه... وهكذا وما زال الله يُكثر للرجل ما يأخذه منه. وأيضاً كما تكون الأسرة يكون المجتمع. فالأسرة هي الوحدة الأساسية للحياة الاجتماعية.

رغم وجود عشرات الألوف من الكتب والنصائح عن سر البيت السعيد فإننا نعتقد أن أفضل نصيحة هي التي دُوّنت منذ مئات السنين على صفحات الكتاب المقدس: «إِنَّ لَمْ يَبْنِ الرَّبُّ الْبَيْتَ فَبَاطِلًا يَتَعَبُ الْبَنَّاؤُونَ» (مز 127: 1). إذاً فهنا نجد السر، وهو أن البيت يجب أن يبنيه الرب. إن الكتاب المقدس هو كتاب العائلات، وقد كُتِبَ عن العائلات من أجل العائلات. فيه يحقق الله كل إعواز البيت والأسرة بيتك أنت بالذات. فيه تجد الحل الذي يقدمه الله لكل مشاكل الأسرة. أسرته أنت بالذات. لن توجد هيئة يمكنها أن تساعدك لجعل بيتك أقدس مكان على الأرض أفضل من كنيسة يسوع المسيح.

أيها الآباء والأمهات، لا يوجد شيء أعظم تفعلونه لبيوتكم ولبنيتكم ولأنفسكم سوى أن تسلموا أنفسكم بدون تحفظ ليسوع المسيح كمخلص نفوسكم، ورب حياتكم، ورجاء أسرتهكم. هل خطر ببالك يوماً أن تسأل: ما هو البيت المسيحي؟ ما هو الفرق بين البيت المسيحي وأي بيت آخر، وما الذي يجعل البيت مسيحياً؟ واضح أن الإجابة هي: المسيح. فبدون المسيح لا توجد كلمة مسيحي. إذاً فبدون المسيح لا يمكن أن يُسمى أي شيء مسيحياً سواء كان فرداً، أو كنيسة، أو بيتاً.

قد يكون الأب خبيراً ماهراً في الشؤون الزوجية وذلك بكثرة الدرس. وربما تكون الزوجة قد حصلت على درجة عالية في الاقتصاد المنزلي. وقد يكون الاثنان معاً مثقفين في العلوم النفسية للطفل. وقد يكون في بيتهما أحدث المخترعات لتوفير الرفاهية. ومع كل هذا، فينبغي القول بأنهما إن أرادا بناء بيت مسيحي بدون المسيح فإنهما يضيعان وقتهما سدى، لأن المسيح وحده هو الذي يجعل البيت مسيحياً. المنزل الجميل والأثاث الفاخر، ومستلزمات المطبخ الحديثة حسن أن تتوفر هذه كلها، ومع ذلك فليس شيء منها جوهرياً لإيجاد بيت مسيحي. لكن الرب يسوع وحده هو الذي يستطيع. فالبيت المسيحي يمكنه أن يستغني عن أشياء كثيرة لكنه لن يستغني عن المسيح.

ولماذا نقول كل هذا؟ نقوله لأن البيت المسيحي يبدأ هنا. فإن كنت أنت مسيحياً حقاً استطعت أن تفعل أشياء كثيرة لتجعل بيتك أكثر مسيحية. أما إن لم تكن مسيحياً حقاً فأمامك شيء واحد، هو أن تصبح مسيحياً بالروح والحق. قبل أن يصير بيتك بيتاً مسيحياً يجب أن تكون أنت مسيحياً. قبل أن يعرف بيتك البركات التي لا يمنحها أحد سوى المسيح يجب أن تعرف أن المسيح مانح هذه البركات. قبل أن يحل المسيح في بيتك يجب أن يحل في قلبك. قبل أن تصالح بيتك مع الله يجب أن تصطحب أنت معه.

مع أننا نتكلم عن الكنيسة القائمة في هذا المكان أو ذاك، إلا أن الكنيسة ليست هي مجرد البناء، بل هي الشعب. إنما لا تُبنى من الحجارة، بل من اللحم والدم. لا تبنى بوضع حجر فوق حجر، بل بضم شخص إلى شخص، على أن يتطلع كل واحد إلى الرب يسوع المسيح كمخلص شخصي له. لهذا فإن قيمة الكنيسة وكيانها وفعاليتها لا تتوقف على جمال البناء الذي يجتمع فيه الشعب للعبادة، بل على الحياة الروحية للشعب الذي يعبد في البناء. والكنيسة لن تسمو فوق شعبها لسبب واحد، هو إن الكنيسة هي شعبها. أو بتعبير آخر قوي: كما يكون الشعب تكون كنيسته.

يقول حكيم معاصر: «هنالك أربعة أحداث ضرورية جداً في حياة كل إنسان: الولادة، والموت، وتجديد الحياة، والزواج». والزواج يبدأ بلقاء، ويتوَّج في الكنيسة، ويستمر في بيت الزوجية، ويُختم في القبر.

وإذ يبدأ الزواج بلقاء فإن اللقاء يعقبه تودد الفتى بالفتاة، والفتاة بالفتى. وهذان إن لم يكن المسيح في قلوبهما وقت التودد فلا يمكن أن يبقى التودد في بيتهما بعد الزواج.

وفترة الخطوبة لازمة كمقدمة للزواج. ومتى كانت هذه الفترة طاهرة كانت الحياة الزوجية طاهرة ومضمونة البقاء. وإذا عرف الفتى والفتاة أن يصليا معاً في هذه الفترة أمكن أن يعيشا معاً بعد الزواج بلا تفرقة إلى نهاية الحياة.

إن الزواج مقدس. والرب يسوع المسيح وحده هو الذي يقده. إن فخامة مبنى الكنيسة، وجمال تنظيم حفلة مراسم الزواج وروعة الزهور والموسيقى هذه كلها لا تجعل الزواج مسيحياً بدون المسيح. وإن لم يتحد الزوجان في المسيح فإن زواجهما لا يمكن أن يُدعى زواجاً مسيحياً. وإن لم تتوفر الحبة بينهما

فلا يمكن أن يتمتع حياة زوجية سعيدة. لكي تتوفر احبة بينهما ينبغي أن تتوفر احبة للمسيح في قلب كل منهما. عندما يجب الزوجان أحدهما الآخر محبة مسيحية خالصة فإن محبتهم للمسيح تكون هي الرابطة التي تربط قلوبهم. عندما يجب الزوجان المسيح فإن تفكير الواحد الخفي نحو الآخر، وتعبيراتها العملية من الواحد للآخر، وتصرفاتهما المتبادلة، تنبعث من الرب يسوع المسيح الذي يجانه، ويريد أن يرضيه.

ويجب أن يبدأ الزواج بالاحبة. وقليلون هم الذين لا يؤمنون بأن «لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ وَقْتُ» بما في ذلك وقت للمحبة (جا ٣ : ١). لكن سيء الأخلاق وحده هو الذي يندس معنى المحبة التي قصدها الله أن تكون مقدسة. يعتقد الكثيرون من الشبان أن الكتاب المقدس صادق حينما يقول: «مَنْ يَجِدُ زَوْجَةً يَجِدُ خَيْرًا» (أم ١٨ : ٢٢). ولكنهم كثيراً ما يرفضون القول: «الزَّوْجَةُ الْمُتَعَقِّلَةُ فَمِنْ عِنْدِ الرَّبِّ» (أم ١٩ : ١٤). هل هذه الكلمات التي قيلت في القرن العاشر قبل الميلاد تبدو غريبة في آذان من يعيشون في القرن العشرين بعد الميلاد؟ هل نؤمن بأن: «كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهَبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقٍ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي الْأَنْوَارِ (يع ١ : ١٧)؟ وهل نقف ونرغم قائلين: سبحوا الله الذي منه تتدفق كل البركات؟ إذن، ولماذا لا تأتي منه بركة الزوجة؟

"لا تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ" (٢ كو ٦ : ١٤). هذه كلمات صادقة. ومهما بدت هذه الكلمات قاسية فإنها مقتبسة من الكتاب المقدس (٢ كو ٦ : ١٤). لم تضعها أية كنيسة بطريقة تعسفية، أو أي خادم من خدام الله، وليست هي من خيال أي متعصب، بل هي من صميم الكتاب المقدس الذي هو كلمة الله. ولذلك فهي تحمل نفس السلطان الذي يحملة الكتاب المقدس. فإن كنت مسيحياً تؤمن أن الكتاب المقدس هو كلمة الله فيجب أن تحترم هذه الوصية. لأن الله الذي قال: آمن بالرب يسوع المسيح فتخلص، يقول أيضاً: لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين. ونفس الكتاب المقدس الذي يتحدث عن الله، والمسيح، والخلاص، والسماء، وجهنم، والكنيسة، هو الذي يرفض زواج المؤمن بغير مؤمنة، أو العكس. إن البداية إن لم تكن خاطئة فالنهاية لا يمكن أن تكون خاطئة. إن كنتم قد ذقتم خيرات الله، ووثقتم في الرب يسوع المسيح ليخلصكم من الخطية، وإن كنتم قد اخترتم عملياً راحة النفس التي لا يأتي بها سواه، فلا تنبذوها بوضع أنفسكم تحت نير الزواج بغير المؤمن أو غير المؤمنة. إن أياماً قليلة تُقضى في التودد الآن، أو سنوات قليلة في الزواج لا توازي شيئاً بجانب الافتراق إلى الأبد. لهذا يجب تحت أي ظرف من الظروف أن لا يتزوج أحد إلا في الرب فقط.

قال أحدهم: ليس الزواج أن تجد الشخص المناسب، بل أن تصير أنت الشخص المناسب. فالزواج ليس مجرد البحث عن زوجة تناسبي، بل التكيف مع الزوجة لأصبح الزوج المناسب. الزواج الناجح ليس مجرد تكيف إجتماعي بين طرفين، إنه قائم على أسس ومقومات هامة يجب توافرها. ففي سفر الأمثال، ٢٤ : ٣، ٤ نقرأ هذه الكلمات:

"بِالْحِكْمَةِ يُبْنَى الْبَيْتُ"

وَبِالْفَهْمِ يُثَبَّتْ،
وَبِالْمَعْرِفَةِ تَمْتَلِي الْمَخَادِعُ
مِنْ كُلِّ ثَرَوَةٍ كَرِيمَةٍ وَنَفِيسَةٍ"

وليس المقصود بالثروة الماديات: كالسيارة وغرفة النوم والمطبخ... إلخ. بل الثروة الحقيقية التي في ذواتنا. لاحظ الأفعال التي وردت في هذه الآيات:

يبني: أي يكون بطريقة غير آلية، كما بنى الله ضلع آدم ليصنع منه حواء.

يثبت: يُجعل في وضع رأسي سليم لا يهتز ولا يميل.

يمتلي: أي يفيض شعباً.

فإذا أعدنا كتابة هذه الآيات مرة أخرى مع شيء من التفسير تصبح هكذا:

بالحكمة، أي القدرة على التمييز نصل إلى نظرة واسعة ودقيقة لأمر الحياة، وبنى البيت، ونحافظ على من فيه، حتى تستقيم أنفسهم، وتتفجر طاقاتهم. وبالفهم، أي التبصر نصل إلى إدراك كلي للمواقف، مما يؤدي إلى تصرف سليم، بدلاً من الاستجابات المتعجلة السطحية.

وبالمعرفة، أي الرغبة في التعلم بالإدراك، نتعرف على الحقائق ونصل إلى معانيها، حتى نطرد الجهل وندوم البحث عن الحق.

إن الزواج المسيحي ليس مقامرة نسبة النجاح فيها ٥٠٪ بل إن من يتزوج بحسب الشروط الكتابية، ومن يسلم حياته وبيته للرب لا بد أن يسعد. إن فشل فلان في زواجه وفي اختياره زوجته، فالسبب أنه عاش حياة الأنانية يبحث عن لذاته وعمّا يأخذه دون أن يفكر في العطاء. فالحياة المسيحية والأسرة المسيحية مضمونتان في يد الرب. وإن لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البنائون.

تعليم السيد المسيح عن الزواج مرتبط بالنظرة المسيحية إلى الجنس. ويجب تلبية رغبة الدافع الجنسي الصحيح في إطار الحياة الزوجية فقط، وعلى هذا الأساس فإن الأخلاق المسيحية تدين العلاقات الجنسية السابقة للزواج، كما تدين الخيانة الزوجية. والزواج المسيحي هو اقتران رجل واحد وامرأة واحدة اقتراناً شرعياً مدى حياة الزوجين وعليه فإنه يتصف بصفتين أساسيتين هما: استمرارية العلاقة، وانفراد العلاقة مع شريك واحد. وكنوعين عن هاتين الصفتين تُؤخذ عهد الإخلاص والأمانة الزوجية على الزوجين عند إجراء عقد الزواج. وهذه العهود تتضمن المحبة والإخلاص والوفاء في الصحة والمرض، في السراء والضراء، وحفظ الإنسان نفسه للآخر دون سواه ما دام الطرفان على قيد الحياة.

إن التكامل المتبادل لشخصين عن طريق الرفقة والمعايشة لا يمكن أن يتم إلا إذا توفرت النية المخلصة بأن هذه المعايشة والعلاقة ستكون دائمة مدى الحياة. والعلاقة التي يدخل إليها شخص ما وهو يحتفظ في أعماق نفسه ببعض التحفظات أو يتصور أنه من الممكن أن يفصم هذه العلاقة إذا لم تحقق له السعادة، هي علاقة محكوم عليها بالفشل قبل أن تبدأ.

إن دوام العلاقة الزوجية أمر ضروري لإعطاء فرصة للنمو التدريجي للفهم والتعاطف والانسجام المتبادل بين الزوجين. وبدون هذا الفهم وهذا التعاطف لن تتحقق السعادة. إن كثيرين من أصحاب النظرة الرومانسية الخيالية يتصورون أنه عندما يقع شخصان في الحب، فسرعان ما تتحطم الحواجز بينهما كما ولو بقوة سحرية، وحالاً يتم الانسجام بلا معوقات. وقد يبدو الأمر كذلك في نزوة الانفعال الطارئ والحماس الوقتي؛ لكن الواقع يؤكد عكس ذلك بأن عملية التفهم المتبادل والانسجام معاً عادة ما تتم ببطء شديد... ولعل عدم استعداد الشريكين لتقبل وتحمل معاناة هذا التكيف البطيء هو السبب في كثير من حالات الطلاق التي تتم بعد حب جارف... معظم الناس إن لم يكن كلهم يريدون حلاً سريعاً لمشكلاتهم، وهذا ضرب من الخيال. التكيف السليم في العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة قد يحتاج إلى شهور وسنين أحياناً، كذلك تكيفهما معاً وانسجامهما في أمور أخرى مثل الذوق، والنظرة إلى الحياة، والطباع، قد يحتاج إلى وقت أطول. وهذا ليس شيئاً غريباً إذ أن أنانية الإنسان واهتمامه الزائد بنفسه، وغير ذلك من المكونات المركبة في شخصيته تعوق قدرته على عطاء النفس للطرف الآخر بلا حدود، وتحتاج إلى وقت وصبر لكي تجد طريقها إلى الاستقرار.

لذلك فقد صدق من قال: إن أطيّب الثمار في الزواج، نجنيها بعد وقت طويل؛ وإن أجهل اختبارات السعادة في الحياة الزوجية نختبرها في السنوات المتأخرة بعد الزواج وليس في السنوات المبكرة؛ على خلاف ما يظن الكثيرون.

وهكذا نرى أن الزواج في المسيحية هو عبارة عن رباط مقدس، منزل مقدس، عائلة مقدسة، وبالأحرى كنيسة حقيقية تشهد للعالم عن محبة الله اللامتناهية التي أعلنها لنا في شخص ابنه يسوع المسيح. فالمسيحية تعبر عن معنى الزواج النهائي وتبشّر به، في حين أن لا إعلان بهذا المعنى في بقية الديانات. فالزواج هو ارتباط الرجل بالمرأة تماماً كارتباط المسيح بالإنسانية في التجسد والفداء. فكما يتزوج الرجل ويحتضن زوجته ليكونا جسداً واحداً، كذلك بالتجسد اتخذ الرب يسوع المسيح جسداً وناسوتاً، واحتضن البشرية. (كما أن لاهوته لم يفارق ناسوته)، "فما جمعه الله لا يفرقه إنسان" (متى ١٩ : ٦).